(١)

الدكتور مالك المجنون

مع أولِ شروقٍ لشمسِ يومٍ جديدٍ دوَّتْ صيحةٌ عاليةٌ :

- هناك رجل مقتول بجانب سور الحديقة .. الكل هنا يعرفه

كانت تلك الصيحةُ مِن عاملٍ لزملائه بفرعِ خضراوات وفواكه أولاد رجب بمدينة نصر ، ذاك المواجه لسور الحديقة الدولية الخلفي مِن ناحية المطاعم والمقاهي ، فقد رأى العاملُ جثةَ رجلٍ على الرصيفِ الملاصقِ للسور ، وكانت هناك سكينٌ مغروسةٌ في رقبته بينما يرقد رقودا أبديا في وداعةٍ وغموض .

وكانت عينا القتيل مفتوحتين عن آخرهما ، تنظران للسماءِ ذاهلتين وكأنهما تخبران بأنَّ صاحبهما كان يعرف قاتله ، وكأنَّ ثَمَّة علاقة ما كانت تربطهما ، فذاق لذلك ألما شديدا لا يُحتمل ، حيث يبدو أنه تلقَّى صدمتيْن ، الأولى أنه فوجىء بأنَّ نهايته كانت بيد أقرب الناس إليه ، والثانية صدمة السكين التي اخترقتْ الرقبة بكل وحشية .

وأسرع العمالُ والباعةُ وبعضُ الناس واجتمعوا حول الجثةِ في صمتٍ ، والتقتْ نظراتُ الجميع معا في آنٍ واحدٍ على منظر السكين وهيئة القتيل الراضية ، وقد كانت ملامحه بعد الموت هادئة مستكينة ، وكان وجهه نقيا صافيا يحملُ علاماتِ الاطمئنان ، ومع ذلك كان هناك شبهُ ابتسامةٍ ساخرةٍ ترتسمُ على فمه ، كتلك التي كانت لا تفارقه وهو حي في كثيرٍ مِن الأحيان .

وليس مُستبعَدا أن يكونَ هذا الرجلُ قد ودَّع الدنيا ضاحكا هازئا مِن كل شيء فيها ، وربما يكون قد أخرج لسانه لقاتله بطريقة جنونية ذاهلة وهو يطعنه الطعنة الوحيدة برقبته ، ومع ذلك فمِن المتوقع منه وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة أنْ يكون قد ردَّد الدعاءَ لقاتله بالرحمة والمغفرة أكثر مِن مرة ، ثم ردَّد الشهادتين ، وغاب مع مصيره .

مات الرجلُ وتمَّ قَبْرُه بمدافنَ مجهولة دون أنْ تُذْرَفَ عليه دمعةٌ واحدةٌ ، مات ولم تنبعثْ مِنْ حوله آهاتُ حزنٍ ، أو تنطلق خلفه صيحاتُ بكاءٍ وعويل ، مات ولم تُلْطَمْ مِن أجله خدودٌ ، أو تُشَق وراءه ثيابٌ أو يتعلق بجثته أطفالٌ وصبيةٌ يصرخون باسمه باكين مرددين : (لا تتركنا .. خذنا معك)

مات المسكينُ ولم تنحنِ على وجهه قبل أن يُدْفَنَ امرأةٌ تتلمسه بيديها ، وتضم رأسه بين كفيها ، وترفعها إليها وهي تصرخ وتنقل عينيها ما بين جسده والسماء كمدا وقهرا عليه ، ومع ذلك فقد كان له حبيبةٌ واحدةٌ تعشقه بقدر ما عرفتْ الأرضُ مِن عشقِ النساءِ للرجال ، لكنها مع ذلك امرأةٌ قذرةٌ رغم نقائه ، وشيطانةٌ رغم ملائكيته ، لعلها الآن هناك بمكانٍ ما تنسج شباكها لصيد بعض البشر ، أو سلب أموالهم وحياتهم منهم ، ولا تعلم مَن سلب منها حبيبها الوحيد ، ولو أنها علمتْ ما حدث به لتركتْ كلَّ شيء ، وجاءت مسرعة ، وقتلتْ كل مذنبٍ و بريء ، فقط مِن أجله .

وحُمِلَ القتيلُ إلى مثواه الأخير دون أن يحملَ نعشَه إخوةٌ له يبكون ألما لفراق رفيق اسمهم إلى الأبد ، فما هو إلا أحد هؤلاء المجانين الذين ملأوا شوارع المحروسة جوارا للمتسولين والمتسكعين وأطفال الشوارع والمشرَّدين ، هؤلاء الذين سقطوا جميعا مِن حسابات الأحياء .

وكان قد حدث قبل هذا اليوم بسنين عددا أن دوَّتْ صيحةُ فرحةٍ غامرةٍ ، وقال الأب للأم :

_ جاء أميرنا مالك يا حبيبة .. فأوقدي النار في البيت شهرا دون انطفاء لإطعام الفقراء

وكانت علاقة مالك بالدنيا قد بدأتْ عندما وضعتْ أمه يدها على بطنها تتحسسُها بعد شعورٍ بالرغبة في القيء ، ثم أخبرتْ عن ذلك أباه التاجر أحمد الأمير وبريق الفرحة يتألق في عينيها ، فذهب الزوجان على الفور إلى الطبيب فأخبرهما أنَّ الأم تحمل جنينا ، فتبادل الاثنان نظرات السعادة في غرفة الطبيب دون كلام ، ثم تبادلا كلمات التهاني طيلة الطريق حتى البيت .

وفي البيت الثري السعيد راح الزوج يعامل الزوجة كملكة ، ثم أسرع فاشترى لها كل أنواع الطعام التي تشتهيه ، وطلب منها بصدقٍ ألا تُرْهِق نفسها في أشغال البيت ، بل ساعدها في كثيرٍ مِن الأعمال ، ثم راح بين وقتٍ وآخر يتحسس بطنها ، ويُنْصِت بأذنيه إلى حركات الجنين ، وبعد بضعة شهور أخبرهما الطبيب واثقا أنَّ الجنين ولدٌ لا يكفُّ عن الحركة ، فطارا مِن الفرحة انتظارا للابن القادم الذي سيملأ البيت والدنيا بهجة ، ويرث عن الأب الأموال الحلال وفضائل الأخلاق وأمانة إعالة الفقراء ، وراحت الأم تُهَيء الملابس والسرير وفرشاة الشعر وكل الاحتياجات ، وبعد طولِ شوقٍ جاء الأمير مالك ليكون قرة عين أمه وأبيه الطيبيْن .

وشبَّ مالك بين أبوين هانئين ، وصار أبوه التاجر أحمد الأمير يخصص كل يومٍ نصف ساعة ، يعلِّم خلالها ابنه البكر دروسا في الدين وفي التعامل الحسن مع الناس ، ولا يكفُّ عن أنْ يكرِّر له :

- الفقراء ثم الفقراء يا مالك

- حاضريا أبي
- الله أكرمني لأني أُكْرِم كل محتاج يا بني
- فعلا يا أبي
- لا ترد يدا تقصدك في شيء دون إكرام
- سأفعل دائما مثلك
- كُنْ قدوة لإخوتك في ذلك
- لا تقلق .. فإخوتي والفقراء هم أمانتك عندي يا أبي

وتخرَّج مالك مِن كلية الطب ثم تزوَّج ، ومات أبوه تاجر الأقمشة الأمين في السنة التي تزوَّج فيها ، ثم لحقتْ أمه بأبيه في أقل مِن شهرين ، فصار لإخوته الأب والأم والأخ ، وتولَّى إدارة تجارة والده ومَحالِّه ، وأنفق على كل مَن في أمانته بسخاء مِنْ ربح هذه الأملاك ، وكان مع ذلك يمارس عمله كطبيبِ قلبٍ ، فأوقف عمله على علاجِ قلوبِ الفقراء بالطب والصدقات ، ثم انتهى به الحال بأنْ سِيق علي أيدي زمرةٍ مِن السفلة الشياطين إلى الجنون .

يا الله ! .. كيف تختلف النهايات عن البدايات إلى هذا الحد؟ .. ألم نتعلم أنَّ البداية المعينة المحسوبة بخطواتٍ معينة تؤدى إلى نهايةٍ معينة محتومة لا حيد عنها؟ .. يحدث هذا في علومٍ كالرياضيات والمنطق .. فلماذا يحدث هنا مع كثيرٍ مِن الكائنات بأن تكون البداياتُ رائعةً ثم تؤول شيئا فشيئا إلى شيء آخر؟!

ولننظر كيف يتلمس بعض البشر خُطاهم وخُطا أبنائهم حذرين مِن كل أنواع الخطر ، ثم فجأة يقع الخطرُ مِنْ حيث لا يحتسبون ، وأنا بالطبع لا أعترض أبدا على أشياءٍ محسومةٍ بعالم الغيب ومشيئة الخالق وإرادته ، لكننا بعض البشر كنا قد أعددنا أنفسنا وسلكنا الطريق المستقيم ، وكنا قد اتبعنا (الكتالوج) كما يقول

الكتاب ، فلماذا الخذلان؟ .. لماذا تتعطل آلة الحياة عما أردناها وتمنيناها؟ .. لماذا المعاناة؟ .. لماذا القتل المؤلم بالحرق والغرق وقطع الرؤوس؟ .. لماذا الظلم والإرهاب وداعش؟ .. ولماذا هذه السكين المغروسة في رقبة هذا المسكين؟!

حتما إنَّ كل هذا يعود إلى إرادة الله وحكمته التي لا يُسأل عنها إلا بتصديق ، ونحن يقينا قد آمنا بالله إيمانا راسخا في كل شيء ، فالله أرحم الراحمين ، لذلك فربما لا يشعر بالألم هذا الكائن الحي الذي صار مقتولا بالحرق أو الغرق أو الذبح طالما كان مظلوما .. ربما .. وتلك الدواجن والأنعام التي تُذْبَح كي نتنعَّمَ بأكلها ، كيف لها أنْ تتألم لنشعر نحن بلذة؟! .. إنَّ مِن اليقيني أنَّ الحياةَ مليئةٌ بالغوامض والغرائب ، وأنَّ الخالقَ قد غيَّب عن المخلوقِ حقائقَ كثيرة ، وحجب أشياء يصير العلمُ بها شيئا مؤلما ، لكن حقا ليس هناك شيءٌ أشد غرابة في الدنيا مِن الدنيا نفسها ، أو أشد إيلاما مِنْ أنْ يرحل إنسانٌ بالسفر أو الموت دون أنْ يودعه أحد .

وإنَّ الوداعَ شيءٌ مريحٌ لمن لا بد له أنْ يفارق ، وهو شيءٌ مؤلمٌ في ذات الوقت لمن لا يتحمل الفراق ، واللقاءُ شيءٌ محببٌ إلى النفس المشتاقة ، وكلُّ المخلوقات بما فيها الإنسان قد جاءوا بمظاهر استقبال مبهجة وإنْ كانت مِن الأم فقط ، صاحبة المنبع الوحيد الذي يلفظ الأحياء الجدد إلى الدنيا الغامضة ، لكن هناك الكثيرين قد رحلوا في غموضٍ أيضا دون وداع ، ولذلك فلحظاتُ الميلاد محبوبة ، ولحظاتُ الموت منبوذة عند كل المخلوقات .

اتصل أحدُ الواقفين بالشرطة ، وجاء رجالها بعد وقتٍ طويلٍ ، وحين عرفوا أنَّ القتيلَ مجنونٌ ألقوا نظرة سريعة على هيئة الجثة وحالتها ، ومِن تلك النظرة أعلن أحدُهم أنَّ مالك المجنون هذا لم يقاوم قاتله ، وأعلن ثانٍ أنه قد استطاب أنْ

يأتي أحدٌ ويخلصه مِن حياة التشرد ، وأعلن ثالثٌ أنه قد تلقَّى طعنةً وحيدةً قاتلةً برقبته بينما كان مستلقيا كأنه عاش ينتظرها لينام نومته الأبدية في استسلام .

حملوا المجنون القتيل والسكين في رقبته ، وقد كان السكينُ مِن هذا النوع الذي يُستخدَم لقطع الموز ، ولذلك تمَّ القبضُ على كلِّ عمالِ فرعِ الخضراوات والفواكه ، لكن لم يكن القاتلُ أحدا مِن بينهم ، عُرف ذلك بعد رفعٍ سريعٍ للبصمات وتحرياتٍ على عجلٍ في محيط الحديقة الدولية ، فأفرجوا سريعا عن الجميع ، وسُجِّلتْ القضية قتلا عمدا والقاتل مجهول ، ثم جاءت تحرياتٌ أخرى تؤكد وجود صديق كان يُرى مع المجنون القتيل في بعض الأحيان ، كان يراه الناس مجنونا لأنه كان بارعا في أنْ يبدو مجنونا ، والأصل أنه كان يتظاهر بالجنون .. اسمه يعقوب الأصفر.

فقبل بضعة أعوام مِن هذا الحادث ، كان يحلو لمالك المجنون أنْ يقضي يومه وليله وحيدا منفردا منعزلا ، وكان يَكْثُر له أنْ يمشي على الرصيف الفارق بين اتجاهي شوارِع وطرق القاهرة .. كان معروفا للكثيرين مِن المارة الذين يحبون أنْ يراقبوا مِن نوافذ سياراتهم ما يحدث خارجها على الجانبين ، ومهما كان المراقبون للمجنون كثيرين فإنه لم يكن يهتم لنظراتِ أحدٍ مِن المارّة ، أو يعبأ بسخرية الصبية والأطفال الذين يرمونه بما يؤذيه مِن نوافذ السيارات ، بل كان يتلقَّى الوخز أو الحرق بأعقاب السجائر مِن سائقى الميكروباصات في تجاهل مُحيِّر ، ولا يسعه إلا أنْ يبتسم لهم ، وفي ذات الوقت كان يتناول مِن بعضهم زجاجة ماء أو بعض بقايا الطعام شاكرا بطريقة مهذبة مع كثيرٍ مِن كلماتِ الحكمة ، حتى لقد ظنَّ كثيرون أنَّ هذا المجنون ليس بمجنون .

طويلٌ هو ، بائنُ الطولِ ، غزير الشعر ، فائق الإلهام ، كثير الصمت .. هكذا كان الدكتور مالك الأمير قبل أنْ يُصاب ببعض علامات الجنون ، وهكذا هو أيضا بعد أنْ صار أغرب مجنون في المحروسة .

أما عن زميله في الجنون يعقوب الأصفر ، فقد كان شخصا ماكرا ماهرا في كل شيء ، غريب الأطوار في كل تصرفاته ، حاقدا على كل ذي نعمة ، يُخْفِي بداخله شرا قاتلا ، ومع ذلك فهو يحرص على زوجته ويحب أولاده حبا مميزا ، وكان على استعدادٍ إنْ كان له ألفُ روح أنْ يبذلها جميعا مِن أجل ألا يرى دمعة حزن تسيل مِن عين أحدهم .. كان يكره كلَّ الناس إلا أولاده ، ويأمل أنْ تحترق الدنيا بمَن فيها وما فيها غير تلك البقعة مِن الأرضِ التي تتسعُ لذويه فقط .

وكان قد قتل شخصا ، وصار على وشك أن يقضي حياته كلها خلف القضبان ، فهداه شيطانه إلى التظاهر بالجنون ليهرب بفعله ذاك ، وبرع في أن يقضي حياته في ثوبه الجنوني الجديد ، ويبدو أنه راق له كثيرا ، خاصة أنه أراد الثراء الفاحش السريع ، لذلك فقد أخبر زوجته وأولاده أنهم سيكونون أفضل بغيابه ، وأنه سيعود إليهم تكرارا ، لذا عليهم أنْ يكفوا عن البحث عنه ، وإنه ذات يوم لا بد أنْ سيعود ليستقر بينهم فيعوضهم عن سنوات الفراق بأموالٍ وفرحةٍ تُنسيهم كلَّ الآلام .. كان حقا رجلا غريبا .

وخرج هذا الشيطان بطموحه وشره مِن بين أحضان بيته إلى أحضان الشوارع وهو يحمل فوق كاهله أربعين عاما مِن الحقد على الأغنياء ، وقد حزن على ضياع غالب عمره دون ثراء ، وتعرَّف بعد ذلك بالمجنون مالك الأمير أسفل كوبري العباسية تعارف اثنين مِن العاقلين لا اثنين مِن المجانين ، فعرف كل منهما عن الآخر الكثير ، ثم هجرا سويا هذا المكان ، فقد جاءهما إلى هناك مجانين آخرون

ذكرانا وإناثا ، وصار يتوافد عليهما في كل يوم متسولون كثيرون ، وتكاثر عليهما أطفالُ الشوارعِ الذين سخروا منهما ومِن اختلافهما عن البقية ، فآذوهما بالطرد ثم المطاردة والتعقب حتى تركا منطقة العباسية وميدان عبده باشا إلى شرق القاهرة .

نقلا معيشتهما المتشردة إلى شوارعِ مدينة نصر ، وتوطدتْ صداقتهما هناك أكثر فوق أرصفة الطرق بها ، وحول صناديق القمامة وهما يتبادلان مخلفات الطعام وبقايا زجاجات الألبان ومعلبات العصائر وقشور الخضراوات والفواكه بين غيرهما مِن المجانين ومِن العقلاء أيضا ، وأمام شعور الجوع يصير العاقل والمجنون متشابهيْن ، وكانت الحدائق المظلمة بيوتهما المتنقلة ، والسماء الممتدة هي السقف الوحيد لأهنأ شخصين صارا يعيشان بغير عقلٍ في المحروسة أمام الناس ، وبكثيرٍ مِن العقل عندما ينفردان .

وذات ليلة كان الصديقان نائميْن على الرصيف بجوار سور الحديقة الدولية عندما قال يعقوب الأصفر لمالك الأمير وهو يمرر أصابعه بين ثنايا لحيته الطويلة الكثيفة ليفكَّ ما تعقد وتشابك منها :

- مالك يا صديقي .. هل تعتبر نفسك مجنونا؟

ضحك مالك ضحكة هادئة وقال :

- أنا وأنتَ مِن أعقل الناس يا يعقوب .. لكن يبدو أننا لم نتحمل الصدمات المتتابعة

- يبدو أنكَ عانيتَ كثيرا يا مالك

- نعم عانيتُ عانيتُ

قالها مالك بعد أنْ ضحك كأنه يغني ، فضحك يعقوب قائلا :

- تُذَكرني بكاظم الساهر.. حتى أنكَ تشبهه كثيرا
- أنا أحب كل أغانيه .. وأحب نزار قباني الذي يغني له معظم كلماته
- وأنا أكرههما
- لِمَ تكرهما ؟
- لأن الناس تحبهما .. فأنا في الأساس أكره كل الناس خاصة المحبوبين والأغنياء
- أنا غيرك .. أنا أحب كل الناس يا يعقوب
- كيف تحب كل الناس ومنهم الظالم والقاتل وأيضا الغني الذي يتنعم وغيره يشقى؟
- أحبهم لأنَّ مَن خلقهم هو الله .. فكيف أكره خلق الله؟
- آه مِن قلبِكَ الجميل هذا .. والله إنَّ الجنون لا يليق بكَ .. يجب أن نعالجك
- لا تُشْغِل بالكَ بي أيها المجنون
- كيف لا أشغل بالي بكَ ونحن توأمان في الجنون ومتشابهان في الكثير؟
- الحقيقة أننا لسنا متشابهين في أي شيء يا يعقوب .. نحن متناقضان تماما
- كيف؟
- أنتَ خرجتَ للشارع فخرج أهلك خلفكَ يبحثون عنكَ يريدون عودتكَ .. وأنا خرجتُ للشارع فخرج أهلي خلفي يتأكدون مِن عدم عودتي
- معقولٌ هذا يا صديقي؟! .. كيف وأنتِ كالملائكة؟! .. أنتَ لا تنام حتى تراني أكلت وشبعت

وضحك مالك الأمير ضحكة خفيفة ، ثم راح يقول في حسرة :

- " أنتَ لا تنام حتى تراني أكلت وشبعت " .. هذه الجملة لخصتْ كل حكايتي يا يعقوب .. فلا تسألني عن شيء آخر الآن .. يكفي أنْ أخبرك أنني هنا على هذه الحال بسبب هذه الجملة .

- والله لا أستطيع أنْ أفهمكَ أبدا أيها المجنون

- وهل هناك مجانين يفهمون؟

وابتسم يعقوب الذي راح يعدل مِن وضع ملابسه المتسخة حول جسده ثم قال :

- ما أجمل أنْ يظننا الناس مجنونين يا مالك! .. والله هذا أكثر راحة لنا

- معكَ حق .. فالمجنون يعيش في راحة لأنَّ العيون لا تراه

قالها مالك ثم بكى ، ثم عاد فقال بنبرة حكيم :

- أنا أرى والله أننا أكثر الناس حرية ومتعة يا يعقوب .. مَن مِن الناس ترى عيناه جمال النجوم كما نراها كل ليلة؟ .. مَن مِن الناس مثلنا؟ .. نمشي كما نشاء .. ونأكل كما نشاء .. ونتفوَّه بما نشاء .. بل ونبول بالشوارع كما نشاء دون أنْ يلومنا أحد .. أعين الناس قد تعودتْ ألا ترى المجانين أو المتسولين في الشوارع .. الكل في عالمه الخاص .. فكفانا الله بذلك شرورهم

- معكَ حق يا مالك .. فانشغال الناس عنا يبعدنا عن مشاكلهم المُعقَّدة ويُبقينا في نعيم

وحقا صدق مالك ويعقوب، حيث لم يكن للرجلين أنْ يعيشا في راحة إلا هكذا بالعيش على هامش الحياة ، وبالطبع ليسا وحدهما مَن يعيشان على هامش الحياة ، هناك الكثير، لكن أسوأ شيء قد طرأ هو أنَّ هامش الجميع هنا قد صار معكوسا مختلفا عن هامش صفحات الكتب ، هامشهم المؤلم هو بقدر الصفحة كلها ،

وهامش الصفحة الصغير السعيد هو لهؤلاء الذين يعيشون كلَّ النعيم رغم كل ما يخرج منهم مِن ظلمٍ ونفاق .

هذا وقد أهمل مَن يظنون أنفسهم أغنياء وعقلاء فئةً مِن الناس هم عندهم سواء ، الفقراء والمجانين ، حتى إنهم لا يرونهم إذا مروا بهم .. يعزلون أنفسهم عنهم داخل سياراتهم المكيفة ذات الزجاج المُغْلَق إلى آخره في الصيف والشتاء ، لا يفتحونه إلا عند الاستفسار عن طريق ، وقد صار عالم الفقراء للأغنياء أشبه بعالم الجن ، موجودٌ لكنه لا يُرى ، وهذا أمرٌ خطير .. فالجنُّ إذا غضبوا صاروا شياطين .

وتلك ميادين القاهرة التي يجب تجاهها ألا نغفلَ أنَّ تحت كباريها مجتمعا موازيا لمجتمعات الناس الأسوياء ، هو مجتمع المتسولين والنشالين واللصوص وأطفال الشوارع والمجانين والبلاطجة المحتلين لكل أماكن ركن السيارات ، جعلهم الفقر والجهل مجتمعا يتسم بكل سمات الحقارة والقذارة والغدر والنذالة ، يجمع أفراده في الظاهر علاقات التشرد والضياع ، وفي الباطن تفرقهم علاقات التصارع والتصادم والحقد ، غير أنَّ الحقد الذي يكون بين تلك الأنواع مِنْ البشر يضاعف الحقد بين طبقات السادة بمراحل لا حد لها ، والشر الذي يخرج منهم لمن حولهم لا يخطر على بال بشر ، والعلاقات الشيطانية المُحرَّمة بينهم ليس لها قانون أو رادع مِن أي نوع .. لهم قوانين خاصة دنيئة ، وعادات أحط مِن الرذيلة .. كل شيء في مجتمعهم مُباح ، مخدرات وسرقات وشذوذ وخداع وغدر في كل وقت .

وتلك الشوارع والميادين والطرقات والحدائق الكثيرة التي تملكها الدولة مِنْ أجل الجميع هم أيضا يملكونها ، والسيارات الواقفة في إشارات المرور يُقسِّمونها فيما بينهم حسب ألوانها وأنواعها وأنواع راكبيها ، والغنائم الكبرى تكون على قدر

القدرة على البلطجة والسيطرة .. كلُّ هذا قد عاشه المجنون القتيل الدكتور مالك الأمير ، ذلك المجنون العاقل الحكيم كما كان عند غجر الشوارع ، ثم لحق به يعقوب الأصفر ، ذلك المجنون العاقل الآخر غريب الأطوار ، والمشكوك في جنونه عند غجر الشوارع أيضا .

****

وها هو يعقوب الأصفر يظهر بعد أربعة أيام مِن مقتل مالك عائدا إلى المكان الذي تعودا أنْ يقضيا وقتهما فيه كثيرا في الشهور الأخيرة ، فأبلغه الناس ما أنْ رأوه أنهم وجدوا صديقه مالك المجنون قتيلا بجوار سور الحديقة منذ أيام ، فإذا به ينخرط في البكاء والصراخ ، وصار يرمي جسده الضخم بالأرض ثم يقوم ، ثم دخل في حالة صمت غريبة حتى جاءت الشرطة باتصالٍ مِن أحد العمال بالمكان، فقادوه إلى قسم أول مدينة نصر كواحدٍ مِن المشكوك بهم .. سأله ضابط المباحث:

- لماذا قتلتَ زميلك المجنون مالك الأمير يا يعقوب؟
- إنه صديقي .. هل يقتل أحد صديقه؟
- نعم المجانين يقتلون بعضهم البعض لأتفه الأسباب
- لكني لا أقتل أصحابي يا باشا
- اعترف أيها المجنون .. فالمجرم دائما يعود ويحوم حول مكان جريمته .. وهذا ما فعلته أنتَ
- أنا لستُ مجرما .. أنا مجنون
- لكني أرى أنَّ كلامك لا يدل على جنون .. أظنكَ تُخفي إجرامك وراء تظاهرك بالجنون .. إنَّ المكر والشر يشعان مِن عينيك يا رجل
- المكر والشر يخرجان مِن العقلاء فقط يا باشا

- هل هناك مجنون يتفوه بكلام الفلاسفة هكذا مثلك؟
- تعلمتُ مِن صديقي مالك أنَّ الفلسفة نفسها نوع مِن الجنون
- واللهِ إنَّ كلامك يعجبني .. لذلك لن أحبسكَ إذا اعترفتَ بجريمتك
- يا باشا أنا لا أتذكر أني قتلتُ أحدا .. لكن إنْ كنتَ متأكدا أنتَ أني قتلته فاحبسني
- هل هذا اعتراف أنكَ قتلته أم تظاهر بالسذاجة يا يعقوب؟
- مِن فضلكَ يا باشا لا تسيء إليَّ .. أنا مجنون ولستُ ساذجا
- اعترف يا يعقوب اعترافا صريحا وسأحولكَ فقط لمستشفى المجانين
- يا باشا .. لقد كان مالك طيبا معي .. فلماذا أقتله؟
- ربما تشاجرتما على طعام أو نقود
- المجانين لا يقتلون بعضهم مِن أجل الطعام والنقود .. إنما العقلاء مَن يفعلون ذلك
- معكَ حق في ذلك يا مجنون .. والله كل كلامك حكم

وسكت الضابط قليلا ، وراح ينظر في بعض الأوراق والأشياء التي كانت في جيب القتيل ، فلم يجد شيئا ذا فائدة سوى صورة امرأة .. رفعها أمام عين يعقوب ، ثم ناولها له سائلا :

- هل تعرف هذه المرأة الجميلة يا يعقوب؟

وبالطبع كان يعقوب يعرفها جيدا ، لكنه أطال النظر إلى صورتها ، وتظاهر بأنه ينظر أكثر ليتذكرها ، وفي الحقيقة هو يفعل ذلك فقط ليمنح نفسه وقتا كافيا ليقرر ماذا يقول ،

وانتهى الرجل إلى أنْ يذكر للضابط جزءا بسيطا مما يعرفه .. قال :

- وعد .. هي وعد .. وعد المحروس

نظر له الضابط باهتمام وسأله :

- مَن وعد المحروس تلك؟ .. ولِمَ كانت صورتها في جيب القتيل؟
- وعد امرأة متسولة كانت تعطف على مالك
- ما أنواع العطف تلك؟

فهم يعقوب ما يلمح له الضابط فابتسم وقال :

- كل أنواع العطف يا باشا
- كلها؟
- كلها

مدَّ الضابط يده ليعقوب والتقط صورة المرأة منه، ونظر لها ثم نظر ليعقوب قائلا:

- المرأة جميلة جدا ومثيرة يا يعقوب .. يبدو أنَّ مالك صديقك هذا لم يكن مجرد مجنون
- اذكروا محاسن موتاكم يا باشا

قهقه الضابط عاليا ثم قال يسأل يعقوب :

- ماذا تعرف أيضا عن هذه المرأة؟
- لا شيء آخر
- عموما سنتحرى عنها وسنعرف كل شيء
- الله يعينكم يا باشا

ورجع الضابط بكرسيه للخلف وقال :

- ونعود لكَ يا مجنون .. أين كنتَ منذ أربعة أيام؟
- كنتُ مسجونا

فسأله الضابط مندهشا بسرعة :

- أين؟
- هنا في حبس القسم

نظر الضابط له باستغراب ثم قال :

- لماذا لم تقل هذا مِن البداية؟

ضحك يعقوب ضحكة خبيثة اكتفى بها كإجابة ، ورفع الضابط صوته ينادي عسكريا ، فجاء مسرعا فأمره بوضع يعقوب بالحجز ثم مراجعة كشوف المسجونين في آخر أسبوع ، فذهب العسكري به ، ثم عاد بعد ساعة ليخبر الضابط بصحة كلام يعقوب ، فأمر بإرجاعه له مرة ثانية ، فلما جاء قال له :

- معك حق يا مجنون .. لقد كنتَ مسجونا عندنا وقت وقوع الجريمة

فوقف يعقوب رافعا يديه عاليا وصائحا :

- الحمد لله .. ظهر الحق ظهر الحق .. يحيا العدل يحيا العدل

ابتسم الضابط وهو يقول له :

- فلتصبر قليلا ولا تتعجل .. ستظل معنا لأيام
- لِمَ؟
- لا تسأل يا مجنون
- وهل يجرؤ أحد أنْ يسألكم .. لكن لي طلبٌ واحد يا باشا
- ما هو؟
- لا تنساني في الحبس